فساد الأمكنة

منذ سنوات لا أذكر عددها أصبتُ بمزيج مركَّبٍ من الدهشة والألم الرهيب ، بعد قراءتي رواية صبري موسى (فساد الأمكنة) ، وقد تأتت دهشتي من مصدرين : الأول من عالم الرواية الغريب في مستوى التكنيك وتداخل الأزمنة، وفي مستوى أبعادها المتعددة المتناقضة ، أما ألمي الرهيب فكان مصدره مضامين الرواية وفكرتها الرئيس وهي تتعمق بالتحليل جذور الفساد في النفس البشرية ، عبر الأجيال والأمكنة ، وترصد تفسخ القيم الإنسانية الكبرى وفسادها، وكانت قسوة ألمي مع بطل الرواية (نيكولا) وهو يمارس طقوس عذابه فوق قمة جبل (الدرهيب) ، وتساءلت في حينها وأنا أتشقلب من شدة ألمي، عن تلك المأساة المروعة التي تنتظم بعض النفوس فتُعطبها بجرثومة الفساد ، ثم تحيرت في نفسي مستفهماً: هل الأمكنة بجاذبيتها ومغرياتها توِّرث قاطنيها بمرور الزمن الفساد بأشكال مختلفة ؟ أم أن خلل النفوس البشرية يُعدي الأمكنة بفساد مُمنهج، فيحولها إلى مفسدة ؟! أم أن الفساد يُنشب أنيابه من خلال علاقة جدلية بين الإنسان والمكان ؟

ها قد مضى زمن طويل منذ قراءتي تلك الرواية الفريدة في سياق السرد العربي ، ولا زال الفساد يتناسل بكثافة في منازلنا، وأمكنة رزقنا، وأوطاننا، ويهزأ بنا بسرد حكاياته المفجعة الموجعة في كل حين، ولا زال من بيننا من اتخذ الفساد شرعة ومنهاجا مستخدما التأويل الفاسد ، والقياس السقيم تبريرا لسلوكه سبل الغي والإفساد.

ولا زال المثل الفرنسي الشهير" فتنش عن المرأة " ساري السم الزعاف ، أقصد ساري المفعول ، فما نصيب المرأة من تفشى إثم الفساد في مسيرة تاريخنا الحزين، وكيف كان ذاك ؟

ذلك ما سنراه إن شاء الله في سطور أخرى عن " الذئبة التي ترعى الغنم! "